**درعة من خلال كتابات الرحلة "شارل دوفوكو"**

**عبد الكريم التزرني (باحث في التاريخ)**

تندرج رحلة شارل دوفوكو ضمن الرحالات الاستكشافية التي قام بها الرحالة الأوربيون خلال القرن التاسع عشر إلى المغرب ، فبعد احتلال الجزائر سنة 1830م و معركة اسلي سنة 1844م التي كشفت بحق عن ضعف المغرب العسكري والاقتصادي و الاجتماعي ، وما ترتب عن هذه المعركة من توقيع لمجموعة من الاتفاقيات و المعاهدات التي كانت جلها ليست في صالح للمغرب. كل هذه الأحداث مهدت الطريق للأوربيين للتفكير في احتلال المغرب الذي ظل ممانعا طوال هذه المدة التي طالما تمنو الوصول إليه للإستحواد على خيراته .

دخل شارل دوفوكو إلى المغرب يوم 20 يونيو 1833م ، متنكرا في زي يهودي فإنطلق من طنجة حيث زار المناطق الشمالية و الوسطى ثم الجنوبية ، فكان في رحلته الإستكشافية هذه يصف عادات السكان و تقاليدهم و لهجاتهم ، مركزا في وصفه بالدرجة الأولى على المناطق الهامشية و المجهولة التي لم تسلك بعد من قبل الرحالة السابقين .

و سنحاول في هذا العمل تسليط الضوء على جزء من هذه الرحلة خاصة ما يتعلق بالمناطق الجنوبية، وواحات درعة على وجه الخصوص .و نريد كذلك من خلال هذه الدراسة، التعرف على المنطقة بأقلام غربية و مقارنتها مع المصادر الأخرى التي اتخدت من درعة موضوع لها.

و سنقتصر في هذه المقالة على المناطق التي زارها الرحلة شارل دو فوكو و التي خصها بالدرس. حيث زار كل من مزكيطة ، تازناخت ، و تامنوكالت ، حيث ركز في رحلته هذه بالدرجة الأولى على المناطق المجهولة التي لم يزرها بعد الأوربيون، وقد حرص على التعرف على سكان البادية في السهول و الجبال و على أنشطتهم و من عادات وتقاليد ...

**1ـ الزي وللباس**

يصف الرحالة شارل دوفوكو لباس سكان درعة بأنه يتكون من الخنيف و البرنس وهو لباس ينسج من شعر المعز الداكن و الرمادي ذو ضلوع من أشرطة ناعمة بيضاء و سوداء وحائك أسمر، تلبس النساء الغنيات الخنث و للفقيرات ملابس من صوف أبيض داكن، أما الرجال فيلبسون الخنيف أو البرنس الطويل الأبيض أو الأزرق المصنوع من الصوف المصبوغ[[1]](#footnote-2).

أما غداء سكان المنطقة حسب الرحالة فإنه يتكون في أغلبه من التمر ودقيق الشعير "فيما يخص النظام الغذائي (...) يتغذى الفقراء على دقيق الشعير و لكن ذي يسر كان يتغذى على دقيق القمح(...) لا يرى القمح بتاتا و لا يعرف جميع السكان إلا الشعير باستثناء الشيوخ، و الشعير أساس الخبز و كسكس الأيام كلها إلزامية"[[2]](#footnote-3).

ولم يغفل شارل دوفوكو في رحلته هذه الحديث عن مناخ درعة الذي وصفه بأنه شديد الحرارة حيث قال " المناخ جاف حسب ما قيل لي إنه شديد الحرارة صيفا و معتدل شتاءا، و يسقط الثلج في بعض الأحيان إلا أنه يذوب عندما يلمس الأرض"[[3]](#footnote-4)

**2ـ العمارة**

وصف الرحالة للمنطقة شمل أيضا العمارة؛ حيث يحدثنا أنه ينتشر على ضفاف نهر درعة عدد كبير من القرى و القصور المبنية بالحجر غير المنحوت و الطين و الأجور المجفف، أما سقف المنازل فهو من جذوع النخيل التي يصنع منها الخشب[[4]](#footnote-5). وتنتظم المنازل على شكل تكتل يسمى القصر هذا الأخير محاط بسور به أبراج تدافع عنه. و أسوار المساكن متصلة بعضها ببعض فلا تترك ممر للدخول إلى القصر إلا عن طريق باب واحد أو بابين يسمى "فم القصر" و تكون هذه الجدران هي نفسها سورا للقصر، و تتواجد بالمنطقة كذلك مداشير غير محاطة بسور[[5]](#footnote-6).

**3ـ الزراعة وتربية الماشية**

تعتبر الزراعة هي الحرفة الثابتة و النشاط الأساس لساكنة درعة خاصة المستقرين و الحراطين منهم على وجه الخصوص، الذين اكتسبوا خبرة عالية في زراعة الحقول و صيانة السواقي و حفر الآبار. و قد ارتبط هؤلاء بالأرض إلى درجة أنها أصبحت جزء من تراثهم الشعبي، يصف الرحالة شارل دوفوكو هذا النشاط حيث يقول :"البساتين رائعة: هناك أشجار متنوعة (...) إلا أن النخيل أكثر عددا. يغب وجه الأرض تحت ظلال الأشجار، وجه الأرض هذا مقسم إلى قطع مربعة الشكل تنبت الذرة و الدخن millet و الخضر تحت ظلال الأشجار، تسقي عدة سواقي هذه المغروسات الغنية. توجد إضافة إلى السواقي هنا و هناك، أحواض مبنية مملوءة عن أخرها bords ماءا عذبا. هذه الحياة النباتية الوافرة، هذه الأشجار الرائعة التي تنشر ظلالا كثيفة فوق وجه أرض كله أخضر..."[[6]](#footnote-7).

أما بخصوص المزروعات فيقول "فالمزروعات قليلة تمتد على طول الوادي مزروعات نحيفة من ذرة و قرع وبصل و وسط هذه المزروعات باقات من الرجراج متناثرة جدا، وهنا و هناك بعض أشجار التين و السفرجل"[[7]](#footnote-8).

وصف الرحلة شمل أيضا مجال الرعي وتربية الماشية الذي قال بأنه يأتي في المرتبة الثانية بعد الزراعة إذ لا يتجاوز القطيع بضع رؤوس من المعز و الأغنام و الأبقار، اللهم إذا استثنينا القبائل الرحل (أولاد يحيى و أيت عطا...) التي تتوفر على عدد لا بأس به من القطيع، و قد أشار الرحالة كذلك إلى أن " الخيول و البغال نادرة تعتبر من الرفاهيات. و ما ليس بالمنطقة إلا قليل من الأبقار و ليس بها جمال و لا توجد إلا بعض الحمير و كذلك الشأن بالنسبة للأغنام و المعز"[[8]](#footnote-9).

**4ـ التجارة**

مكن موقع درعة الإستراتيجي بين الطرق الصحراوية و التجارية، و كذا انفتاحها على بلاد إفريقيا جنوب الصحراء من أن تلعب دورا تجاريا مهما، جعل منها مركزا تجاريا ضخما بجنوب المغرب حيث قصدها التجار من كافة الأفاق، يقول محمد المنوني:"إن درعة الإسلامية صارت مع مر الزمان محطة تجارية مهمة و بالخصوص في واردات الذهب والفضة مع السودان"[[9]](#footnote-10)، كل هذه العوامل جعلت من درعة معلمة تجارية يحج إليها التجار من كل حدب. و قد ساعدها هذا أيضا على نسج علاقات تجارية مع الدول المجاورة خاصة إفريقيا جنوب الصحراء و البحر الأبيض المتوسط، هذا على المستوى الخارجي.

أما على المستوى الداخلي فإنها كانت تتعامل مع بعض المناطق كسوس و مراكش و تافلالت.

إلا أن هذا الازدهار الذي عرفته المنطقة بدأ في التراجع؛ حسب شارل دوفكو، نتيجة المشاكل التي حلت بالواحات، و التي كان لها تأثير سلبي على النشاط التجاري سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي. نتيجة تراجع قوافل سوس و كلاوة الكثيرة العدد فيما ما مضى حيث أصبحت نادرة حاليا و غير ذات أهمية[[10]](#footnote-11)، بالإضافة إلى عدم توفر الأمن في القوافل التجارية التي تتعرض باستمرار للنهب من طرف قطاع الطرق، ثم الجفاف الذي ضرب المنطقة.

هذا مجمل ما أورده الرحالة شارل دوفوكو في كتابة " التعرف على المغرب" عن منطقة درعة، و رغم ما يقال عن هذه الرحلة وصاحبها وغيره من الرحالة الأوربيون الذين زاروا المغرب في فترة ما قبل الاستعمار، فإنها حققت من الناحية العلمية نتائج بالغة الأهمية وتكشف عن جوانب عديدة من تاريخ المغرب خاصة المتعلقة بالنظم المعيشية و العادات والتقاليد التي كثيرا ما يتم إغفالها في المصادر التي تناولت المنطقة ، بل تبقى في كثير من الأحيان مرجعا مهما للباحث لا يمكن الاستغناء عنها للتعرف على تاريخ وتراث هذه المناطق الغنية بأدوارها التاريخية.

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**البيبليوغرافيا:**

ـ شارل دوفوكو ، التعرف على المغرب 1883-1884،الجزء الأول و الثاني ، ترجمة محمد بلعربي دار الثقافة 1999 .

ـ البوزيدي أحمد " التاريخ الاجتماعي لدرعة : دراسة في الحياة السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية من خلال الوثائق المحلية" آفاق متوسطية الدار البيضاء 1994.

ـ البوزيدي أحمد ، دكتوراه " درعة بين التنظيمات القبلية و الحضور المخزني: دراسة في الحياة السياسية و الاجتماعية (1894م ـ 1935م)". مطبعة أنفو ـ برانت، فاس 2009.

ـ المنوني محمد ، دليل المخطوطات، دار الكتب الناصرية بتامكروت

ـ الوزان حسن ، وصف إفريقيا الجزء الثاني، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي للنشر 1983. الطبعة الأولى والثانية.

ـ مرمول كربخال، " إفريقيا"، الجزء الأول والثاني والثالث ، تعريب الجمعية المغربية

للتأليف و الترجمة والنشر. مكتبة المعارف الرباط، 1984

1. ـ شارل دوفوكو ، التعرف على المغرب 1883-1884، ترجمة محمد بلعربي دار الثقافة 1999، البيضاء ص290. [↑](#footnote-ref-2)
2. ـ نفس المصدر ص، 150. [↑](#footnote-ref-3)
3. ـ نفس المصدر ص: 149. [↑](#footnote-ref-4)
4. ـ هذه المعلومات موجودة أيضا عند حسن الوزان "وصف إفريقيا: الجزء 2 ص: 118. و مرمول كربخال "إفريقيا" الجزء الثالث ص: 145. [↑](#footnote-ref-5)
5. ـ يسمى مدشر كل تكتل سكني غير محصن، و القصر كل مركز سكني محصن. [↑](#footnote-ref-6)
6. ـ شارل دو فوكو، التعرف على المغرب، ص:143. [↑](#footnote-ref-7)
7. ـ نفس المصدر ص: 149. [↑](#footnote-ref-8)
8. ـ نفس المصدر ص: 150. [↑](#footnote-ref-9)
9. ـ محمد المنوني، دليل المخطوطات، دار الكتب الناصرية بتامكروت. ص، 9. [↑](#footnote-ref-10)
10. ـ شارل دو فوكو ، التعرف على المغرب، ص: 149. [↑](#footnote-ref-11)